عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

بغداد من خلال المقامات

صبيح صادق

القسم الثقافي ـ جريدة الجمهورية ـ بغداد

هذا البحث محاولة لاستشفاف الملامح العامة عن بغداد من خلال نصوص المقامات التي دارت احداثها فيها او قيلت حولها .. ولا يتوقع القارىء اكثر من ذلك .. فخطة هذا البحث هي جمع كل المقامات التي قيلت في بغداد واستخلاص المعالم الاجتماعية والاقتصادية وسواهما من المتفرقات التي تخص الحياة البغدادية في بحث مستقل يمتد من القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي .

وبصورة عامة فان قلة عدد المقامات قد سببت إرباكا في هذا الموضوع لتوفر نصوص عديدة في جانب من الجوانب وعدم توفرها في جانب آخر . ولم تكن جميع المقامات قد تحدثت عن بغداد فهناك من المقامات ما لم تكن لها علاقة ببغداد مثل مقامات الزمخشري والسيوطي وابن الوردي وغيرها .. ولكن المقامات المهمة مثل مقامات الهمداني والحريري والكازروني وغيرها تحدثت عنها . نعني مقامات الهمداني والحريري عدة مقامات منهما جرت احداثها في بغداد . ووردت في مقامات ابن ناقيا وابن ماري مقامتين في كل منهما جرتا في بغداد . وجاءت مقامات الكازروني والآلوسي كلها عن بغداد . بينما خصص الجزري مقامة واحدة عن بغداد ..

قسّم هذا البحث الى عدة اقسام ، فالقسم الاول يتحدث عن المواسم الاجتماعية والدينية كما صوّرتها المقامات ، ثم القسم الثاني عن الحالة الاقتصادية في بغداد . وفي القسم الثالث جوانب متفرقة مثل انطباعات اصحاب المقامات عن بغداد واهلها والوان الطعام والشراب عندهم والتعامل في السوق وبعض الفصول حول الحوادث التاريخية وغيرها ...

تم ترتيب النصوص حسب التدرج الزمني لصاحبها .. وفي احيان كثيرة قد يكون هناك نص واحد فقط او نصين يبتعد احدهما بعدة قرون عن الآخر .

من الملاحظات المهمة حول المقامات انها ظهرت ابان انحلال الدولة العربية الاسلامية سياسيا ، اي ان بغداد كانت في بداية اضمحلال حضارتها ولهذا جاءت الكثير من مظاهرها وصف لحالة التدهور الذي تعيشه وليس وصف لحالة التمدن التي شهدتها بغداد ..

والمقامات التي عثرنا فيها على مادة الموضوع هي :

(١) مقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م وقد طبعت طبعات عدة .

(٢) مقامات ابن ناقيا (عبدالله بن محمد) المتوفى عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م المطبوعة في استانبول ـ مطبعة احمد كامل ـ سنة ١٢٣٠هـ .

(٣) مقامات الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م المطبوعة طبعات عدة .

(٤) مقامات ابن ماري/يحيى بن سعيد [المعروفة باسم المقامات المسيحية] المتوفى عام ٥٨٩هـ . وهي مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٣٢٠ ، وقد ورد نص المقامتين بعد هذا البحث .

(٥) مقامات الكازروني علي بن محمد المتوفى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م بتحقيق الاستاذين كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الارشاد بغداد ـ ١٩٦٢ .

(٦) مقامات ابن الصيقل الجزري المتوفى عام ٧٠١هـ/١٣٠١م بتحقيق الدكتور عباس مصطفى

WWW.ATTAWEB.COM

الصالحي (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة في المكتبة المركزية ـ جامعة بغداد .)

(٧) مقامات الآلوسي محمود بن عبدالله الحسيني المتوفى عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م المطبعة الحجرية في كربلاء . سنة ١٢٧٣هـ .

(٨) مقامات ناصيف اليازجي (مجمع البحرين) المتوفى عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م المكتبة التجارية بيروت .

المواسم الاجتماعية والدينية

كان الكازروني (القرن الرابع الهجري) اكثر اصحاب المقامات وصفا للمواسم في بغداد مثل مواسم رمضان والعيد والحج والربيع والترب وغيرها . والنصوص التي تم جمعها حول هذا الموضوع تعود الى القرن السابع الهجري ـ اي عصر الكازروني ـ وهي فترة مهمة من حياة بغداد لسقوطها بايدي المغول ، ومصادر هذه الفترة اقل بكثير من المصادر التي تؤرخ للفترة السابقة عليها ، ولهذا يمكن اضافة هذه النصوص الى نصوص كتب التاريخ في وصف بغداد .

شهر رمضان

يصف الكازروني ما يحدث ببغداد في شهر رمضان حيث توزع الهدايا في ايامه الاولى على العلماء والمتصوفة والنبلاء ، وفي وقت الفطور من كل يوم كان الافطار يوزع على كل محتاج ، يقول الكازروني :

« ... شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتتح بالصدقات ، المنوّر الليالي بالصلوات ، ففي اول يوم منه يُفيضُ على العلماء والمتصوفة والنبلاء من بِدَر الانعام وبُدْن الانعام ، ما يجاوز حد الاكثار . ويُثني وقت الافطار ، ثم تفتح أدْر المضيف للعوام والفقراء والايتام فلا يبقى من لا يشمله الانعام ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك الا من عليه راتب ، وكذلك الصدور واصحاب المراتب يُفطر على اطباقهم الاماثل ، واطايب الالوان تصل الى الفقير والسائل » .

ثم ينتقل الى وصف ليالي شهر رمضان حيث توقد المصابيح وينشغل الناس بالصلوات او بقضاء اوقاتهم في السمر حتى وقت العشاء . ويقرأ آخرون القرآن . يقول الكازروني :

« وليالية مشرقة بالمصابيح ، والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح والعوام ملتهية بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء ثم تُرفع قناديل السحر وتتناغى شحارير التذكير وايامه كلها عبادة واوقاته طاعة وزيادة » .

ثم يصف عادة توزيع الهدايا قبل حلول عيد الفطر حيث يتم توزيعها على الجميع ..

« فاذا بقي من الشهر اربع ليال وعاد جديده كالاسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ثم بعده الملوك وارباب المراتب والسادة وُلده الاطايب حتى يصل الانعام الى الخاص والعام فقلّ من لا ينال منها نصيبا وفي البعد من لا يكون منها قريبا . »

موسم العيد

وصفت مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم العيد في بغداد والتهيوء له ، وكان نفسه ـ اي الكازروني ـ معجباً بمظاهر العيد في بغداد ، فقال :

« يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكِلُّ عن حسن وصفه السنة البلغاء وتعجز عن ادراك وصفه عقول الالباء فلا ينتهي الى نعته قول قائل ولا يصل الى مثله الاواخر ولا الاوائل ، ولا رُئي لاحد من الملوك ما يناسبه ولا حكي ان لهم مثله او ما يقاربه » .

ثم يصف الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة والاحتفال الشعبي فيها :

يقول :

« يباكر اليه في احسن زينة ولباس ويجتمع لرؤية الموكب اكثر الناس ، ثم يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصغاره ، والملوك في احسن زينة وابهى حلية ، واعظم سكينة ، فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة ايام حتى ينقضي منقضاه ، ويصل آخره ومنتهاه وقد تكاملت للعالم المارّ في آناء الليل والنهار ، فان كان الاضحى نحر الخليفة في ابوابه ، وكذلك اهل بلده ، رغبة في ثوابه فيمتار الفقراء ويؤجر الاغنياء ».

موسم الربيع

كان اهل بغداد يخرجون في الربيع الى الحدائق والبساتين والانهار ويقضون اوقاتهم هناك بين الغناء والموسيقى .. وقد وصف الكازروني (القرن الخامس الهجري) خروج اهل بغداد في الربيع فقال في مقامته :

« وامازمان الربيع ، وايام الوشي البديع فانهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينشالون « كانهم الى نصب يوفضون » فينزلون الجواري في رهط من الجواري ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون نحو قصده تغليسا . فيجتمعون بالمحوّل اذ عليه في الحسن المحوّل فيخترفون اشجاره ويقطفون ثماره ونواره ، ويفترشون رياضه وازهاره وينزلون غيطانه وانهاره . ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان وتصفق الغدران وترقص الاغصان وتميد الافنان وكلما دسع الراووق طاب المشوق وكلما بكى السحاب ضحك الحبّاب . وكلما طرب العود زمجرت الرعود وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة ، كذلك اياما لايطعمون مناما . »

ثم يتحول الكازروني الى وصف ما آلت اليه بعد ذلك :

« الا انهم انتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم واصروا على الفجور وسفك الخمور ، ولاجرم ان العرش اهتز غضبا ، وسُعيرت جهنم حصباً ؛ وازدادت لهبا ؛ فاخذهم الله تعالى اليه « اخذ عزيز مُقتدر » « ولقد تركناها آية فهل من مدكّر » فابن الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت والله الشهوات ، بقيت التبعات ، وخشعت الاصوات ، وسقيت الرفات من اعظم العظات ... »

موسم الحج

ذكر الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم الخروج للحج في بغداد فوصف مغادرة الحجاج بغداد وكيف يتم الاحتفال بهذه المناسبة على ضفاف دجلة ويكتظ الناس للمشاهدة ..

يقول الكازروني

« .. منها موسم الحاج وهو اعظم مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنه الالسنة ، وتفتح فيه آذار المضيف لكل بائس من الحاج وضعيف ، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا . ثم يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حلل الابريز ما بين فتى وفتاه وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتفعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماشر او ممتطٍ صهوة عربي فلا يزالون كذلك اياما يمرحون وحداناً وفئاماً (الجماعة من الناس) والسبل تجلى في المواكب الى الخيام وتُزف الى منازلها بالعبيد والخدام . فاول مايقدمها العلَم وهو محمل الخاص وبعده الكوس وجند السفر ، والنوبة المكية في الاثر تتهادى بين الحجاب والدعاة ، والقراء في احسن الصفات ، ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ورَحْل كل جهة محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج، فيخلع على الامير ويُكلّل ، ويُنعَم عليه ثم يُحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته . »

ثم يصف الكازروني بعد ذلك عودتهم بقوله :

« فاذا رجعوا سالمين فهو موسم ثانٍ للمتفرجين ، يُفض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة مايدهش الناظر ويجلو النواظر . ومامنهم الا من قد يَخْبَخ بسلامة اهله مرحبين (بما اتاهم الله من فضله) » .

التنزه

اعتاد اهل بغداد التنزه في العديد من الاماكن ، وقد وصفت المقامات تنزه اهل بغداد فيتحدث الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته القردية على لسان عيسى بن هشام اذ يقول :

بينا انا « على شاطىء الدجلة ، اتامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف ، اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مراى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فاذا هو قرادٌ يرقص قردهُ ويضحك من عنده .. »

وهذا النص يوضح هواية اهل بغداد بالتنزه على نهر دجلة وان بعض الناس كانوا يقومون ببعض الفعاليات كما هو الحال بالنسبة للقراد الذي يجتمع الناس عنده للترفيه والضحك ، وهذه القصة وان كانت من اختراع الهمداني الا انه يبدو انها كانت شيئاً عادياً آنذاك .

وفي القرن السابع الهجري وصف الكازروني خروج الناس للتنزه الى الحدائق والبساتين فقال :

« على ان الايام كلها كانت تمضي افراحاً ومواسم يرتاح اليها الناس ارتياحاً ففي كل سبت عيد جديد وموسم سعيد يخرج الناس الى الرياض والازاهير لسماع اصوات الشحاريز والغلمان كالولدان والجواري كالحور الحسان ما بين اهيف واحور واكحل واغيد واعطر .

في البدر من وجنته نكتة
وفترة في العين من طرفه
اذا مشى جاذبه ردفه
كانه يمشي الى خلفه
وطفلة تكامل شبابها وطاب عرفها وعذب رضابها ترمي عن قسي الحواجب بسهام الفتح الصوائب .
وتنال منك بحد مقلتها
ما لا تنال بحدها النصل
واذا نظرت الى محاسنها
فلكل موضع نظرة تبل
والناس في ارغد عيش واطيب زمان واعدل وقت واصفى اوان » .

موسم زيارة القبور

من المواسم التي سجلتها المقامات موسم زيارة القبور الذي تتم فيه مراسيم خاصة للترحم على الموتى بقراءة القرآن وايقاد الشموع وتوزيع الطعام والحلوى .

يقول الكازروني (القرن السابع الهجري) :

ومنها موسم التربّب ، واليها المنقلب. فيركب الوزير في ارباب الدولة والامراء والصدور والكبراء ، في موكب مشهّر الى الرصافة ، وهي مدفن ولاة الخلافة فيجتمعون بها للقراءة والدعاء واهداء الثواب للخلفاء كذلك اياماً يشرق فيها ويغرّب . وتراء المواكب تشوق وتطرب فاذا كان الليل اجتمع المتصوفة والفقهاء ، واوقدت الشموع وقرا القراء وشرع الوعاظ في الكلام والاحياء الى آخر الظلام فاذا اسفر الصباح وبادر المؤذن بالفلاح ، فضّ على المذكورين من الحلواء واطايب الطعام والغذاء ما يستغرق حد الاكثار ويعم ذوي الاقتار . »

حالة التعليم

لم نعثر على نصوص كثيرة حول طبيعة التعليم من خلال المقامات باستثناء اشارتين وردت الاولى في مقامات يحيى بن سعيد والثانية في مقامات الالوسي .

في مقامات يحيى بن سعيد (القرن السادس الهجري) انتقاد للتعليم في مجال الطب حيث ورد في المقامة الخمسين التي تعرف بالدارية على لسان احد اساتذة الطب عندما ناقشه الراوية يحيى بن سلام فيقول له الاستاذ :

« اقتصروا من العلم على جس العرق بغير عرفان . ومن القارورة على الاصباغ والالوان وحوت نجوم اسرار جالينوس وبقراط . ووهت عقود اراء افلاطون وسقراط . وصار من كبر العصبة وكثر العصبة . يوما اليه بمفرج الغمم . ومحي الرمم . تالله ان تلك العمائم على عقول البهائم ما حوت قشب الملابس والبرانس غير افهام الانعام النسانس لو سالت احدهم مسئلة رايت ارضاً ممحلة ووجوها معبسة واموراً ملتبسة ، ثم انشد :

ينمقون احاديثا لمكتسب
وفي السؤلات يبدون المعاذيرا
وهل ينال علوما جل موقعها
الا فتى جد تلقينا وتكريرا
واتلف النفس تدريسا اناط به
ركضا الى العلم حتى اذهب الزيرا

ومن هذا النص يتوضح ان دراسة الطب اخذت تتدهور إن صح ما يقوله صاحب المقامة !

اما الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري) (التاسع عشر الميلادي) فقد وصف طبيعة تعليمه هو ؛ ومن خلاله يتوضح طبيعة تعليم الافراد آنذاك فقال :

« قرات على ابي علم النحو وطرفا من فقه الشافعية والفرائض وكان لي لزيد شفقته ومضاعف رافته بمنزلة الف رآئض ثم قرات على زيد وعمرو ممن في مصري من علماء المصر » .

وفي مقامات ناصيف اليازجي (القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) جاء في المقامة البغدادية :

« دخلت يوما بعض المدارس وإذا شيخنا الخزامي هناك جالس . والطلبة قد اقبلوا عليه ، واحدقوا به واليه . فسلمت عليه تسليم المشوق ، وابتهجت به ابتهاج العاشق بلقاء المعشوق . وجلسنا نتشاكى النوى ونتباكى للجوى واذا امراة تنادي يا شاري اللبن الرخيص الثمن . وهي في اثناء الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثة الاحكام ... قال : والشيخ بين ذلك يقلب وجهه في السماء ويقول سبحان من علم آدم الاسماء ... قال : وما فرغ الشيخ من الكلام حتى ابتدر القيام . فتعلقوا به وقالوا : لات حين مناص فان دواء الشق ان يحاص . ولقد اتيت حيث ايس فلا تذهب من حيث ليس . فعاد الى المقام وقال صبرا : على مجامر الكرام . ثم اندفع في شرحه كاليعبوب حتى ملأ العيون . ولما قضى الوطر نهض على الاثر فقام القوم يودعونه وهم يودون لو يتبعونه ... » الخ .

الحالة الاقتصادية

ظهرت المقامات في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي اي في عصر الانهيار السياسي لبغداد فتبع ذلك تدهور اقتصادي واضح حيث تركزت الثروة بيد فئة معينة ، بينما عاشت الطبقة العامة في فقر وحرمان ، واذا ما عرفنا ان المقامات وبالذات مقامتي الهمداني والحريري قد الفتا لغرض الكدية والحيلة في الحصول على المال اتضح مدى اثر التدهور الاقتصادي في كتابة المقامات .

لقد صورت المقامات حالة الفقراء والمتسولين بشكل دقيق ووصفت الاساليب التي يتبعونها في الحصول على قوتهم ، وهي وان كانت قصصا ادبية إلا انها تعكس وقائع حالة بغداد وانهيارها الاقتصادي آنذاك .

ففي القرن الرابع الهجري يضع الهمداني مقامة باسم المقامة (المجاعية) وهي انعكاس للفقر والمجاعة آنذاك . يقول عيسى بن هشام :

« كنت ببغداد عام مجاعة فملت الى جماعة قد ضمهم سمط الثريا . اطلب منهم شيا ... »

ثم يلتقي بغلام فيقول له :

« حالان لا يفلح صاحبهما : فقير كده الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع فقال الغلام : اي الثلمتين تقدم سدها ؟

قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغا .

فيصف الغلام لعيسى بن هشام ثلاثة اشياء الاولى طعام والثانية شراب والثالثة مجلس مريح) .

« قال عيسى بن هشام . قلت : انا عبد الثلاثة .

فقال الغلام : وانا خادمها لو كانت . فقلت : لا حياك الله احييت شهوات قد كان اليأس اماتها ثم قبضت لهاتها فمن اي الخرابات انت .

فقال :

انا من ذوي الاسكندرية
من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان واهله
فركبت من سخف مطية

وهذه المقامة لا تحتاج الى تعليق في بيان انتشار الجوع فعيسى بن هشام الذي يتوقع ان الغلام (ابو الفتح الاسكندري) سيقدم له الطعام والشراب واذا به فقير مثله ! وهذه القطعة وان كانت اقرب الى الطرفة ولكنها تعكس حالة من الحالات التي عانتها بغداد .

ويحدثنا الهمداني كذلك في مقامته (الازازية) عن حيلة طريفة وفيها وصف للحاجة الى الطعام جاء فيها :

حدثنا عيسى بن هشام قال .. « اخذت عيناي رجلاً قد لف راسه ببرقع خياة ونصب جدده وبسط يده واحتضن عياله ، وتابط اطفاله ، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره والمرض في ظهره .

وَبَلي على كفين من سويق
او شحمة تضرب بالدقيق

او قصعة تملأ من خير ديق
يغثأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق
يا رازق الثروة بعد الضيق
سهّلْ على كفّ فتى لبيق
ذي نسب في مجده عريق

(ثم يميط لثامه فاذا به ابو الفتح الاسكندري) .

وفي المقامة (العراقية) يصف الهمداني حالة متسول شاب حزين يسأل الناس ..

« حدثنا عيسى بن هشام قال : طفت الآفاق حتى بلغت العراق ... واصلتني بغداد فبينما انا على الشط اذ عنّ لي فتىً في اطمار يسأل الناس ويحرمونه » .

واذا به ابو الفتح الاسكندري .

تدل هذه المقامة على انتشار عادة التسول حتى بين الشباب !

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فقد جاءت مقاماته في هذا المجال مشابهة لمقامات الهمداني وقد صورت حالة البؤس اكثر مما صورته مقامات الهمداني .. ففي المقامة البغدادية للحريري نلاحظ فقيراً يتمنى الموت .. ولا هم له سوى الحصول على لقمة تشبعه وكساء يغطي جسمه ..

جاء في هذه المقامة عندما تأتي عجوز الى مجلس فيه الحارث بن همام فتصف حالة فقرها بما يلي :

« فحبذا الموت الاحمر وتلوى من ترون عينه فراره (مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه) .

- وترجمانه اصفراره (اي تبيانه اصفراره) .
- قصوى بغية احدهم ثردة (اي نهاية ما يبتغيه احدهم ثريد) .
- وقصارى امنيته بردة (اي منتهى ما يتمناه كساء يلبسه) .

ثم تبدأ هذه العجوز بالانشاد فتقول هذه المقطوعة المركزة حول حالتها الفقيرة التي تدفعها لقول القريض املاً في شيء من الطعام :

يا رازق الشباب في عنفوانه
وجابر العظم الكسير المهيض
امنح لنا اللهم من عرضه
من دنس الذم تقيّ رحيض
يطفيء نار الجوع عنّا ولو
بمذقة من حازر او مخيض
فهل فتىً يكشف ما نابهم
ويغنم الشكر الطويل العريض
فالذي تعنو النواصي له
يوم وجوه الجمع سود وبيض
اولاهم لم تبدُ لي صفحة
ولا تصدّيت لينظم القريض

وفي نهاية القصة يظهر ان هذه العجوز هو ابو زيد . وهذه المقامة وان كانت تدل على حيلة طريفة ولكنها تعكس حالة التردي في المستوى المعاشي آنذاك .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة وردت فيها قصة رجل يدخل المستشفى وهو شحيح البدن وعندما يسأله احد اصدقائه بقوله :

« ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن .

فقال :

لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقالك بأنشوطة لولا غريم كدّني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما النجات بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى
والناس فيها فنون

والقصة واضحة في ان سبب دخوله المستشفى هو للحصول على الطعام مجانا . وهنا لابد ان نشير الى ملاحظة مهمة هي بالرغم من الانهيار السياسي والاقتصادي فان التقدم العلمي

كان لا يزال مزدهرا بدليل العناية التي يلاقيها المرضى في المستشفيات ..

وفي القرن السابع الهجري كتب ابن الصيقل الجزري في مقامته البغدادية حيث يقول احدهم للآخر حول ما يعانيه :

ولما وردت هذا القليب (البئر) واردت في متجر الندامة التقليب ، بادرت لابلٍ غائتني وابل . من مرض هاتيك علتني فشفلتُ لوجود الالتياح (الجوع) وعدم الارتياح .. »

وبالرغم من ان ابن الصقيل الجزري في مقامته كان يركز على اللفظ اكثر من الحادثة إلا ان الشكوى من الجوع تعكس هذه الظاهرة آنذاك .

كدية اصحاب العلم

حاولت المقامات ابراز اهل الكدية من العلماء واهل المعرفة والادب اضطرتهم سوء حالتهم المادية الى الحيلة والكدية . وهي نتيجة طبيعية لاختلال التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة . وقد ابرزت المقامات هؤلاء بانهم من ذوي المكانة في المجتمع ثم دار الزمن دورته كي ينزلهم من عليائهم . وهي بذلك تعبر عن استياء اصحاب المقامات من هذه الظاهرة التي استشرت آنذاك .

ففي مقامات الهمداني (القرن الرابع الهجري) مثال لهذه الحالة في المقامة المجاعية عندما يسأل عيسى بن هشام الشخص الذي يناقشه حول انواع الطعام (ابو الفتح الاسكندري) يقول له : من اي الخرابات انت فقال :

انا من ذوي الاسكندريه
من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان واهله
فركبت من سخفي مطية

وفي مقامته الازاذية ينشد احد الفقراء مقطوعة فيقول فيها :

سهّلْ على كفّ فتى لبيق
ذي نسب في مجده عريق

وهي اشارات واضحة ولا تحتاج الى تعليق.

وجاء في المقامة القردية حينما يسأل عيسى ابن هشام ابا الفتح الاسكندري عما أوصله لحالته في اشتاله قراداً ينشد ابو الفتح :

الذنب للايام لالي
فاعتب على صرف الليالي
بانحق ادركت المنى
ورفلتُ في حلل الجمال

وهنا يتضح ان ابا الفتح لم يرض هو نفسه عن اسلوبه إلا انه مضطر اليه اضطراراً بسبب فقره وهو يعترف ان عمله احمق ولكن لا سبيل للحصول على ما يريد ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن ناقيا في مقامته الزرابعة عن متسول فيقول :

« حدثني بعض الاصدقاء النازلين بشرقي الزوراء قال انصت ليلة من الليالي وانا في نفر من العيال قد ضم جمعنا الطعام وايقظ مصباحنا الظلام الى سائل بالباب يتوخى بكلامه الاعراب وينطق بلسان الاعراب ويعتمد على غريب اللفظ ويمزج سؤاله بالوعظ ... »

والعبارات الاخيرة تدل على ان المتسول شخص من اهل المعرفة والثقافة .. اضطره الفقر الى التسول ..

وما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين كتب الحريري عن هذه الظاهرة فجاء في المقامة (البغدادية) عندما تأتي عجوز (ابو زيد بلباس امراة) الى المجلس الذي فيه الحارث بن همام فقالت :

« لارينكم اولاً شعاري . ثم لارينكم اشعاري . فابرزت رُدُنّ درعٍ دَريس . وبرزت ببرزةً عجوز دَرْدَبيس وانشات تقول :

اشكو الى الله اشتكاء المريض
ريب الزمان المتعدي البغيض
يا قوم اني من اناس غنّوا
دهراً وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع
وصيتهم في ذا الورى مستفيض

(الى آخر المقطوعة ..)

ومن هذه المقامة نرى ان شاعراً قوياً ينتحل شخصية امراة كي يحقق غرضه . والقصة وان كانت تدور حول الحيلة إلا انها تدل على ان اهل المعرفة والعلم لم يكونوا بمنزلة يحسدون عليها ..

وفي مقامته (الشعرية) يتحدث عن شيخ شاعر يرفع الدعوى ضد غلام سرق قصيدته وبعد

ذلك يتضح انهما متفقان كي يحصلا من الوالي على الهدايا . .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد في مقامته الخمسين حادثة عن طبيب لا يقبل عيادة مريض ، إلا انه يغير رايه بسبب المال ، ويقوم بخدعة لاجل الاحتفاظ بالهدايا . تقول المقامة بعد ان يأتي غلام لاصطحاب الطبيب فيقول الطبيب :

« تالله ما ارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً ، دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيماً ، حتى ارى امراً مستقيماً . فنقده الغلام بقرطاس ولم يبد وجه مكاس فحين قام امتزجت بديمه ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته ، والتحق بزمرته شاهد مدنفاً لم يبق منه الا تقا بانفاس ، متصعدة ونفس مترددة فقال : هذا ما كنا فيه ادعى الى من لا يمكن تلافيه . ثم حل جلاباً بماء الورد وسقاه فانتعش انتعاشة ظن انه شفاه فافرغت عليه اكياس النضار انواعا . وصار بينهم ملكاً مطاعاً فمذ ايس انخداعهم نهض . وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعا . ورفع في الفضائل شراعاً . ارجو لمن عانيت انصلاحاً . اوترى لمزاجه صلاحاً فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً . . »

وهذه القصة تدل على ان الطبيب يقبل بخدعة اهل المريض مقابل الاحتفاظ بالهدايا . . وهي دلالة على شيوع الحاجة حتى تولد هذا الجشع والتكالب على المال .

وفي القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي قال الآلوسي في مقاماته بارتفاع شان الجهال وهو اشارة ضمنية بانحدار شان العلماء . يقول الآلوسي :

« يا بني
بغداد لم تزل بملأ فيها ان دبدني ان اجعل زمام امري في كل وقت من يدي ديني فلا تستغربوا علوّ سافل وارتفاع دني جاهل فمن اخلاق الزمان انه ملوّل والباطل جولة ويزول .
يا بني
ان في سوقية بغداد المحترفين من هو احسن بكثير من بعض من اعيانهم وقد غدوا عن سبيل الرشد منحرفين فاذا اضطررتم الى مجالسة احد فاختاروه من اولئك السوقية وان خيراً من اعيان السوء الكلاب السلوقية
لا يغرنكم الاوجه الغر
فيارب حبته في رياض

وهذا النص لايشيرالى كدية اهل العلم وحاجتهم إلا انه يفهم منه من خلال ارتفاع شان الجهال والذي يعني بدوره انحطاط شأن العلماء .

حيل اهل الكدية

وضعت المقامات الحيل التي كان يمارسها اهل الكدية للحصول على المال والطعام . فيصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في احدى مقاماته المتعلقة ببغداد قصة طريفة لشخص يريد ان ياكل مجاناً فلم تكن امامه سوى هذه الحيلة . .

تقول المقامة البغدادية للهمداني :

حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتهيت الازاذ (نوع جيد من التمر) وانا ببغداد وليس معي عقد ، على نقد . فخرجت انتهز محالّه [امكنة بيع هذا التمر] حتى احلّني الكرخ فاذا انا بسوادي يسوق بالجهد حماره . ويطرف بالعقد إزاره فقلت : ظفرنا والله بصيد وحياك الله ابا زيد . من اين اقبلتَ . واين نزلت ومتى وافيت وهلمّ الى البيت . فقال السوادي : لست بابي زيد . ولكني ابو عبيدٌ . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وابعد النسيان انسانيك طول العهد واتصال البعد ... فقلت هلم الى البيت نصب غذاء او في السوق نشتر شواء . والسوق اقرب وطعامه اطيب ... ثم اتينا شوّاء (وبعد ان اكلا اطيب الاكل واحسن الشراب) ... خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشواء بإزاره وقال : اين ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمة ثم قال الشواء : هاك . ومتى دعوناك زن يا اخا الصحّة عشرين فجمل السوادي يبكي ويحلّ عقدة باسنانه ويقول : كم قلت لذلك القرّديد انا ابو عبيد وهو يقول انت ابو زيد فانشدت :

اعمل لرزقك كلّ آنه
لا تقعدنّ بكلّ حالة
وانهضْ بكل عظيمة
فالمرء يعجز لا محاله

وهذه القصة وان كانت تمثل قطعة ادبية ولكنها تتحدث عن وقائع او حوادث قريبة منه .

ويورد الهمداني كذلك في مقامته الصيرية والتي تدور حوادثها في بغداد قصة توضح كيف يمكن لانسان ان يجمع المال عن طريق حيل واساليب عديدة .. والقصة هي قصة غني يتعرض لكارثة فيفقر ثم يقوم باساليب وحيل عديدة حتى يرجع غنياً .. ويصف لنا الهمداني كيف يرجع هذا الشخص الى حالة الغنى وماذا عمل كي يصبح غنياً ؟

يقول على لسانه :

« فجمعت من النوادر والاخبار والاسمار والفوائد والآثار واشعار المتطرفين ونواميس المتخرفين ونوادر المنادمين ورزق المنجمين ولطف المتطببين وكياد المخنثين ودخمسة الجرابزة وشيطنة الابالسة ما قصّر عنه فتيا الشعبي وحفظ الضبي وعلم الكلبي فاستردفت واجتديت وتوسلت وتكديت ومدحت وهاجيت حتى كسبت ثروة من المال ... »

وهنا يتضح ان الحيلة والمراوغة احد اهم الاساليب للكسب آنذاك .

ولابد من الاشارة كذلك الى ان جمع المال من خلال « النوادر والاخبار والاسمار والفوائد والآثار واشعار المستطرفين ... » وهي اشارة الى ان اهل العلم اضطروا الى امتهان الحيلة للحصول على المال ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن ناقيا في مقامته الثالثة عن حيل بعض المتسولين ومراوغتهم للحصول على ما يبغون . تتحدث القصة عن جماعة قدموا بغداد فذهب احدهم ليشتري لهم الغداء فيستغلهم احد المتسولين مدعيا انه من موطنهم تقول المقامة : انه

« ... صادف شخصاً بالفناء عاريا من البزة والحياء ، قد خلع اطماره ، وبسط ازاره ، واطلق يمينه ويساره وهو يقنص ويحبس ويجمع ويقصع وكأنهن لدى دروز قميصه فدّ وتوءمْ سمسم مقشور فقال لي هازيا يتشعث الجدار وسوء الجوار وهو ينشرْ زاده ويحلّ مزاده ، ما اشبه الجار بالدار ، فقلت من لك بالوطن الخاص وجامع ، وجامع ولد العاص ثم ذكرت الغوطة وابواب جيرون وحننت حنين ميسون فرفع ذلك الشخص راسه وصاعد انفاسه وانتزع زفره من حيزومه الى خيشومه ثم قال واني لك مقروع ... وجعل يغيض عبرته وينبدي لوعته ويندب غربته ويقول واشواقا اليكم ابدا ، وواحسرتا على شربة من ماء بردا ... فيا لله فقد حزنني مقاله وساءني حاله فقلت له يا هذا البشر بقرب الدار والرفيق السار والعود معنا الى البلد والاجتماع بالاهل والولد ودعوناه الى الطعام فتثاقل عن المقام، حتى اقسمنا عليه بحرمة البلدية فاسرع في الجية فناولناه ذنوبا من الطعام ... ثم دخل الامام ومن معه لصلاة الظهر ... فعجبنا من هربه وهم القوم بطلبه فاذا هو البشكري فشكرنا الله على السلامة منه .. »

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فيصف في مقامته البغدادية حيل الشيخ الذي يتقمص دور العجوز كي يصل الى مراميه ووضح على الطريقة الشعرية كيف يستعمل الحيلة لتحقيق مآربه . تقول القصة ان ابا زيد مثّل دور عجوز تلقى الشعر في احد المساجد ثم يكشف امره الحارث بن همام فينشد ابو زيد :

يا ليت شعري ادهري
احاط علما بقدري
وهل درى كنه غوري
في الخدع ام ليس يدري
كم قد قمرتُ بنيه
بحيلتي وبمكري
... ...
... ...
ولو سلكت سبيلا
مالوفة طول عمري
لخاب قيدحي وقدحي
ودام عشري وخسري
فقل لمن لام هذا
عذري فدونك عذري

وهنا يمكن اضافة الملاحظة السابقة وهي كيف يحاول الشاعر والكدية من خلال شعره .

وفي مقامة اخرى للحريري وهي المقامة التمرية عن قصة طويلة تقوم على الحيلة للحصول على الهدايا وهي تتحدث عن شيخ يحتج لدى الوالي للقصيدتين تجري مساجلة بينهما فيعجب بكليهما ويمنحهما الهدايا . وكانت الحقيقة ان الشيخ هو ابو زيد والفتى فتاة وقد اتفقا على هذه الحيلة .

وهذه القصة هي الاخرى تدل على ان الادباء قد اضطروا لممارسة الحيلة كي يحصلوا على الاعطيات والهدايا .

وكتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة (القرن السادس الهجري) قصة رجل يدخل المستشفى مدعياً المرض كي يأكل ويشرب فيها دون مقابل .. تقول المقامة :

« قال الراوي فرايت بين يديه رياحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النقاب ومن حظه له عن وجه الادب النقاب فحين لمحته اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطة الفريد فتصفحت انماطه فاذا هو شيطان الحماطه فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتبردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقالك بانشوطة لولا غريم كدني تقاضيه ولم أجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى
والناس فيها فنون

وهنا كذلك لابد من التنبيه الى ان صاحب الحيلة من العلماء !!

الفاظ التسول

حفظت لنا احدى المقامات ـ وهي المقامة الرابعة لابن ناقيا ـ الالفاظ التي يستعملها اصحاب الكدية وفيها من الادعاء بالمرض والجوع والغربة ، والاوصاف التي يطلقونها على الاشخاص الآخرين .

جاء في المقامة الرابعة لابن ناقيا (القرن الخامس الهجري) على لسان احد الفقراء الذي اخذ ينادي اهل الدار وقد تعمد واهم بعدم الجواب :

« يا اهل الدار اما تمون انا لله وانا اليه راجعون اتراهم شهود ام رقود عموا مساءً اهل المنزل وحياكم الظلام المقبل وشهد لكم ضياء المحفل انا فقير المرميل (الفقير) وانا ذو الداء المنغل اعينوا السائل المبتلى والزمن الاعمى ولو بثفروق التمرة ثم غصة العبرة . كل ذلك ونحن لا نجيبه ولا نثنيه ثم غصة العبرة كل ذلك ونحن (اهل الدار) لا نجيبه ولا نثنيه ثم عاد الى ندائه واضرب عن بكائه فقال : يا اهل المنزل نعمتم مساءً وطبتم ثناء ايا بني الانعام وبقية الكرام اجيبوا سؤالكم . عجلوا نوالكم . قد اكفهر الدجا ... واضطرم الجزع في قلبي والوطن في الجانب الغربي فامننا سمحتم بالرفد فصحتم بالرد . وانما اسأل تافهاً من الزاد لا يلثم اكالاً ولا ينقص مكيالاً ، ولو من نثاره الخوان كفتيل النواة او كابهام القطاة اللهم ابعثها على يد نجيب منهم ولو كفيط الظفر (قلامة الظفر) او كحبة النقر (العصفور) يا اهل العطاء ويا ارباب الثناء اتيتكم طيّان الحشا بادي العشا (جوعان) عُريان في سربال المزق اطوى اللقم ، واجمع اللقم (الطريق) ولا صبية كالبغاث (صغار الطير) ولم يطعموا لمّاكاً مذ ثلاث ... كاعواد البَرْوَق (نوع من النبات) وكاسلال الشِيْرِق (نوع من النبات) شُحْبُ الالوان عُجْفُ الابدان يقحمون الثرى ويتماوون من الطوى وانا اليه وانا اليه راجعون انما يستجيب الذين يسمعون ».

الحفلات ومجالس اللهو

في مقابل هذا الفقر كانت هناك طبقة غنية مرفهة صورتها المقامات من خلال مجالس اللهو

والشراب فصورت البذخ والترف في الحياة البغدادية ..

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته الصيمرية مجالس لهو وشراب في بغداد فيتحدث عن شخص متريف كان ينظم المجالس لخلانه فيتحدث عن نفسه فيقول :

« لم نزل في صبوح وغبوق نتغذى بالجدايا الرضيع والطباهجات الفارسية والمدققات الابراهيمية والقلايا المحرقة والكباب الرشيدي والحملان وشرابنا نبيذ العسل وسماعنا من المحسنات الحذاق ، الموصوفات في الآفاق وتقلنا اللوز المقشر والسكر الطبرزد ، وريحاننا الورد وبخورنا الند .. »

وبعد افلاسه وفقره ثم غناه مرة اخرى يرجع له خلانه ويعود لحياة اللهو :

« وانتقلنا الى مجالس شراب فاحضرت لهم زهراء خندريسية ومغنيات حسان ومحسنات فاخذوا في شانهم وشربنا .. »

هذا بالنسبة لما وصفه الهمداني في القرن الرابع الهجري اما التحريري فقد وصف في القرن الخامس الهجري مجلساً للهو والشراب في مقامته (القطيعية) قال فيها :

« حكى الحارث بن همام عن جماعته .. اجتمعنا في يوم سما دجنته (ارتفع غيمه) ونما حسنته وحكم بالاصطباح منزنته (سحابته) على ان نلتهي بالخروج الى بعض البروج لنستريح النواظير في الرياض والنواضير ونتصقل الخواطر . بشيم المواطر (برؤية السحب المطرة) فبرزنا ونحن كالشهور عدة . وكندماني جذيمة (الابرش) مودة ، الى حديقة اخذت زخرفها وازينت ، وتنوعت ازاهيرها وتلونت ومعنا الكمتيت الشمول (الخمر) والسقاه الشموس والشادي (المغنى) الذي يطرب السامع ويلهيه ويقري كل سمع ما يشتهيه ، فلما اطمأن بنا الجلوس ودارت علينا الكؤوس وغلّ علينا ذمير (الشجاع) عليه طمير (ثوب خلق) فتجهمناه تجهم الغيد الشيب ووجدنا صفو يومنا قد شيب ... الى ان غنى شادينا المغرب ومغردنا المطرب :

إلامَ سُعادُ لا تصلين حبلي
ولا تؤيسنَ لي مما الاقي
صبرتُ عليك حتى عيل صبري
وكادت تبلغ الروح التراقي
وها انا قد عزمت على انتصاف
الساقي فيه خلي ما يساقي
فإن وصلاً اللذ به فوصلٌ
وان صرماً فصرم كالطلاق

ولم نعثر على نص آخر يصف الحفلات في بغداد باستثناء الآلوسي الذي وصف لنا حفلة اقيمت له بمناسبة اكمانه التعليم على شيخه وهي حفلة تختلف بالطبع عن حفلات اللهو .. ويمكن اضافة نص للكازروني (القرن السابع الهجري) في الحفلات المقامة بالمناسبات مثل شهر رمضان والحج ويمكن مراجعتها في فصل المناسبات الاجتماعية ضمن هذا البحث .

نعود الى الآلوسي (القرن الثاني عشر الهجري) الذي وصف حفلة تخرجه فقال في مقامته الثانية نقال :

« كان ذلك في المدرسة الخاتونية المقابلة مما يلي القبلة للحضرة القادرية وتفضلت صاحبتها السيدة عاتكة عابدة (كذا) كانها زمن البرامكة ولقد رايت هناك دهماء القدور تهدر كالفنيق وتفوح طيباً كالمسك الفتيق ورايت هاتيك المائدة مثل عروس مائدة لا عيب فيها سوى اشتمالها على اصناف اطعمة تلذها الاعين وتميل اليها الانفس وتشتهيها ولم يبق في البلد عالم الا اكل منها وروى احاديث الشفاء عنها وانها بينهم كبدر السماء الا من هانتها من رقيق غمائم عمائم احرار العلماء .. »

ولا شك ان الحفلة التي يصفها الآلوسي تختلف في هدفها ونوعها عن الحفلتين السابقتين . وايراد نصها هنا للتمييز بين انواع الحفلات المقامة ببغداد وانماطها .

انواع الشراب

وردت في المقامات العديد من الانواع الشائعة للشراب في بغداد آنذاك . ففي المقامة الصيمرية للهمداني (القرن الرابع الهجري) يصور مجلس شراب وكان شرابهم « نبيذ العسل » .

ثم عندما يصف مجلساً آخر للشراب يقول : « فاحضرت لهم زهراء خندريسية » [الزهراء : الشرقة . والخندريسية : الخمر القديمة] .

وبعد ذلك عندما يوجه في طلب احدهم يقول :

« فاحضرته وقدمت اليه طعاما فاكل . وسقيته من الشراب القطربلي فشرب حتى ثمل . [القطربلي نسبة الى قطربل موضع بالعراق لخمره وشهره في الجودة والطيب] .

وفي المقامة المجاعية للهمداني كذلك عندما يبين عيسى بن هشام رغبة بالطعام وهو جائع لسائل يساله عن رغبته فيقول :

« لون لطيف الى خردل حريف [يريد نبيذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويمه وزيادة لذته] .

وفي القرن الخامس الهجري وصف الحريري في مقامته القطيعية الشراب ومجالسه حيث يحكي الحارث بن همام عن جماعته في ذهابهم للهو . فيقول كانت : « معنا الكُمَيْت الشموس [الخمر] . وهناك كانت حالة اخرى معاكسة هي الامتناع عن الشراب يصف الحريري على لسان احد الشيوخ الذين حضروا مجلس شراب فراح يصف امتناعه عن الشراب قائلاً :

نهانيَ الشيبُ عما فيه افراحي
فكيف اجمع بين الراح والرّاح
وهل يجوز اصطباحي مِن معتقة
وقد انار مشيب الرّاسِ اصباحي
آليت لاخامرَ نَتْنِي الخَمْرُ ما علِقت
روحي بجسمي والفاظي بإفصاحي
ولا اكتستْ لي بكاسات السلاف يدٌ
ولا اجلّتْ قِداحي بين اقداحِ
ولا صَرَفْتُ الى صِرْفٍ مشمشمةٍ
همّي ولا رُحْتُ مُرْتاحا الى رَاحِ
ولا نَفَثْتُ على مَنْشُولَةٍ ابداً
شملي ولا اخْتِبِرتْ نُدْمانا سوى الصّاحِي

انواع الطعام

صورت المقامات انواعا من الاطعمة التي كانت شائعة في بغداد فالهمداني (القرن الرابع الهجري) يصف من خلال مقامته الجماعية انواعا عديدة من هذه الاطعمة فعندما كان عيسى بن هشام جائعا وجاء يطلب الطعام قابل شابا يساله عن حاجته فقال :

(١) رغيف على خوان نظيف [الخوان ما يوضع عليه الطعام] .

(٢) وبقل قطيف الى خل ثقيف [اي بقل اضيف اليه خل شديد الحموضة] .

(٣) ولون لطيف الى خردل حريف [يريد نبيذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويته] .

(٤) وشواء صفيف الى ملح خفيف [يقصد تنظيم قطع اللحم بشكل مصفوف في مشكة من حديد ثم يستوى على النار] .

(٥) يقدمه اليك الآن من لا يمطلك بوعد ولا يعذبك بصبر . ثم يملك بعد ذلك باقداح ذهبية من راح عنبية . اذاك احب اليك ام اوساط محشوة واكواب مملوة وانقال معدّدة . وفرش منضدة وانوار مجوّدة . ومُطرب مجيد . له من الغزال عينٌ وجيد فان لم ترد هذا ولا ذاك فما قولك في :

(٥) نحم طري [ويروى لحم طيري اي لحم طيور] .

(٦) وسمك نهري .

(٧) وباذنجان مقلي .

(٨) وراح قطربلّى [اي خمر مدينة قطربل المعروف بجودته] .

(٩) وتفاح جني [الذي جني من قريب] .

ومضجع وطي على مكان عليّ . حذاء نهر جرار وحوض ثرثار وجنة ذات انهار .

قال عيسى بن هشام فقلت : انا عبد الثلاثة .

ومن خلال مقامة الهمداني الازاذية تبين ان البائع كان يصنف الفواكه ويرتبها .

جاء في هذه المقامة :

« سرت غير بعيد الى رجل قد اخذ اصناف الفواكه وصنفها . وجمع انواع الرطب وصففها فقبضت من كل شيء احسنه » .

التعامل في السوق

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته البغدادية الطعام الذي يصنع في السوق ومن خلاله تتبين العلاقة بين البائع والمشتري . ومنها نفهم ان الزبون يطلب من الاكل احسن ما يكون وفق مواصفات محددة ..

يقول عيسى بن هشام ـ عندما يلتقي بابي عبيد ـ لصاحب المطعم :

« ... ثم اتينا شواة ينقاطر شواؤه عرقا . وتتسايل جوذاباته مرقا . فقلت

افرز لابي زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختر لـه من تلك الاطباق وانضد عليهـا اوراق الرقاق ورش عليه شيئاً من ماء السماق ليأكله ابو زيد هنيئاً » .

ثم يقول لصاحب الحلوى :

« وقلت لصاحب الحلوى : زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجرى في الحلوق وامضى في العروق . وليكن لـيلى العمر يومي النشر رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤي الدهن . كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ ليأكله ابو زيد هنيئاً .

ثم يصف بيع الماء المثلج من السقاء :

« ثم قلت : يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشمشع بالثلج ليقمع هذه الصارة ويفثأ هذه اللقم الحارة إجلس يا ابا زيد حتى ناتيك بسقاء يأتيك بشربة ماء » .

ضرب البائع للزبون الذي لم يدفع

صورت المقامات في احد المشاهد الطريفة كيف يتعامل البائع مع المشتري اذا امتنع الاخير عن الدفع ويبدو ان البائع آنذاك لم يكن ليطلب الشرطة لتحل المشكلة بل كان كما يصفه الهمداني في مقامته البغدادية حيث يفطر البائع اخذ الحساب بالقوة . فبعد ان ورّط عيسى بن هشام ابا عبيد بالدخول الى المطعم ثم هرب منه تاركاً اياه كي يدفع الثمن . يصف ابن هشام الحالة :

« فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشواء بإزاره . وقال ابن ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكه لكمة . وثنى عليه بلطمة ثم قال الشواء : هاك ومتى دعوناك . زن يا اخا القحة عشرين . فجعل السوادي يبكي ويحل عقده باسناه ويقول : كم قلت لذاك القريد . انا ابو عبيد وهو يقول : انت ابو زيد » .

وصف حادثة الطاعون

يصف الآلوسي (القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي) حادثة الطاعون التي عصفت ببغداد ايام داود باشا والي بغداد فقال :

« جرت حادثة الطاعون فاجرت العيون العيون وعظم الهم وربا . وبلغ السيل الزبى فقلت في نفسي صبراً فهذا والله تعالى اعلم آخر السهام وهل بعد هذا الأمر الامر مرمى لرام حتى اذا نضبت مياه العيون وخبت نيران الشجون جاء الوزير على رضى والي حلب فحاصر بغداد وجلب على واليها الوزير داود باشا ما جلب وكان نزول ذلك القضاء المحتوم في اواخر سنة ١٢٤٦ رغوم فحيث خلا الكريخ ممن يهرع اليه ويقول في المهمات عليه اتخذني اهله سيدا وملكوني منهم يدا وقلبا ابّدا خلت الديار فسدت غير مسوّد ومن الشقاء تفرّدي بالسودد فلما غلا قدر القدر وعلا قدر عليّ بالغلبة على البلد وانتصر خرج على من نافقا الغدر اهل النفاق وبرز اليّ من زوايا المكر اهل الشقا والشقاق فجعلت اكفكف عني السهام بكف اخلطه مع بعض عظام مدينة السلام . »

عزل علي رضا والي بغداد وتولية محمد نجيب

وصف الآلوسي (القرن الثالث عشر الهجري /التاسع عشر الميلادي) عزل الوالي علي رضا وتولية محمد نجيب فقال :

« واول ما احسست بالشر وبدو ما اضمره القدر وسر عند عزل نخبة الوزراء وروح جسد الزوراء الوزير الذي لم تسمع بمثله في حسن الاخلاق فيما مضى مولاي المرحوم المبرور علي رضا .. »

ويتضح من هذا ان الآلوسي كان على صلة وثيقة مع علي رضا على عكس علاقته مع محمد نجيب يقول الآلوسي حول تولية الاخير :

« ثم لما اقبل الوزير والدستور الكبير الحاج محمد نجيب باشا منفصلاً من وزارة دمشق الشام وقعد على دست الوزارة في مدينة السلام جعل طفل ذلك الحال يشيب كل يوم ما لا يشيبه الطفل في احوال حيث عكف على ذلك الوالي كل عدّو ولي رخيص القدر لكن في العداوة غالي .. »

وصف اصحاب المقامات لبغداد

اختلف اصحاب المقامات في وصف بغداد . وقد وصف كل واحد منهم جانباً من الجوانب فمنهم من نظر اليها باعتبارها دار الخلافة بينما انتفق آخرون الى وصف اهل بغداد وقد تاثر اهل

المقامات بارتفاع او انهيار شأن بغداد السياسي ، ففي القرن الخامس الهجري يصفها الحريري في مقامته الشعيرية بانها :

« حمى الخلافة والحـــرم العاصـــم من المخافة » .

بينما وصفها يحيى بن سعيد المعروف باين ماري في القرن السادس الهجـــري في مقامتـــه الخمسين بانها :

« حمى الامام ونقطة الاسلام » .

وقد بقيت سمعة بغداد كبيرة حتى القـرن السابع الهجري حيث وصفها الكازروني في مقامته بقوله :

« كنت اسمع من جـواب الاقطـــار وطرائق البلاد والامصـــار ان دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعـــدن الكرام ودار الخلافة ومحـــل الامن من الخلافة .. »

إلا ان هذه النظرة سرعان ما تغيرت عندمـا رآها الكازروني بنفسه فكانت مفاجئة له :

« وافيتها بلدة خالية وامة جاليـــة ودمنة حائلة ومحنة جائبة وقصوراً خاوية وعراصا باكية وقد رحل عنها سكانهـــا وبان عنها قطانها وتمزقوا في البلاد ونزلوا في كل واد . وقصورها المشيدة مهدومة ونعماؤها مسلوبة معدومة موحشة تفقد قطانهـــا باكيـــة بلسان الحـــال على سكانها .. »

اما دار الخلافة فقال عنها :

« رايت حرم الخلافة مهانا بعـد ان كان كعبة وامانا فطاف بي ببعض قصـــوره واعتذر عن الباقي لقصوره وقال : يكفيك ما المحك واريك .. »

وامام هذه الحالة لم يكن امام الكازروني إلا رثاء بغداد :

« فوقفت ابكيهـا واندب ربوعها ومن ومن كان فيها :

وانـدب اطلالهـــا تارة
وابكي على فرقة الظاعنينا
فلـو ذهبت مقلـة بالبكاء
لفرط الغرام لكنا عمينـا

ويبدو ان الكازروني كان يندبها مقارباً مجدها الغابر بحاضرها الذي دمره الغزو المغـــولي ..

وبعد ذلك جاء الجزري (في القرن الثامن الهجري) فوصف بغداد :

« هـــذه دار سلام المؤمنين فادخلوها بسلام آمنين » .

ويبدو من هذا ان بغداد كانت قد استعادت بعض مكانتها بعد انتهاء الغزو المغولي لها .. اما في القرن الثاني عشر الهجري اي في العصر العثماني فان الآلوسي قد وصف تخلف بغداد لانها لم تكن سوى مجيد ولاية تابعـة لا غير .. ويبـــدو ان الآلوسي كان متشائما من بغداد بسبب المحن التي تعرضت لها والتي كانت تسبب احيانا الاقتتـال بين اهالي بغداد ولما كان الآلوسي قد عاصر هـذه الاحداث فقد تنبه الى بســـاطة وتفاهة الاسباب التي ينصارعون من اجلها .. يقول الآلوسي :

« وقد رايت اهل الزوراء لا يجمعون على زور حق وواضح كشمس الضحى في الظهور بل يكونون طائفتين في كل حادثة فان انتم المكروه فالواجب ان يكونوا مـع الطائفة المحقة والا فكونوا طائفة ثالثة .
وانحازوا عن الطائفتين بمعزل وابعـــدوا عنها بالف الف منزل فذلك في هذه الايام ابعد عن الوقوع في مهاوي الملام » .

وكانت ظاهرة التقرب الى السلطة قد لاحظها الآلوسي فنبهتها في مقاماته قائلاً :

« يا بني
ان معظم اهل بغداد ليعظمون المتردد الى السراي اكثر من تعظيمهم المتردد الى الكمة ويعطون من عصى ربه في اطاعـــة الوزير اكثر من اطاعتهـــم مـــن اطاع في عصيانهم ربه ويكاد يقول لسان حالهـــم وانه لانصح من التقـــرير انّ قبلتنـــا السّراي والهنا جل شانه الوزير فتراهم قد جعلوا معظـــم شغلهم انهم يطوفون حوله وان لم يـــامرهم طواف اصحـــاب السّامري حول عجلهم فان استطعتم ان تترددوا احيانا الى الوزير فلا باس ولكن عليكم بالحشمـــة وقلة الكلام وقصـــر الجلوس وعـــدم معارضة احـــد مـــن الجلوس » .

ولكن الآلوسي بالرغم من ذمـه لبعض الناس في بغداد فانه كان متعلقا بها محباً لها وقوله فيهـا هو قول المخلص ويتوضح مدى حبه لوطنه بقوله :

« وحيث انكم لا تستطيعون فيما اظن الهجرة ولا تطيقـــون ترك الاوطان وان

كانت مرة بالمرة فعليكم بقلة الاختـــلاط وكثرة الاحتياط فلعلكم تحفظون من الامر الامر وتسلمون من ان ينطحكم ذو قرنين وليس باسكندر .. »

العاب تسلية

من خلال المقامة الفردية للهمداني (القـرن الرابع الهجرين) يبدو انه من الشائـــع ترقيص القرود على قارعة الطريق لجمـع المال . جاء في هذه المقامة :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا انا بمدينة الـسلام قافلاً من البلد الحرام. اميس ميس الرجلة على شاطىء الدجلة. اتامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمـين بنوى الطرب اعناقهم ويشق الضحـك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجـل دون مراى وجهه لشدة الهجميـة . وفرط الزحمة فاذا هـو قراد يرقص قرده ، ويضحك من عنده . »

ورد هذا النص في مجـال التنزه كذلك . ولكننا نورده هنا لتوضيح لعبة شائعة في بغـداد هي القراد الذي يقوم بترقيص القرد ؛ ويبدو ان هذه اللعبة كانت مشوقة ومسلية بدليل المزدحمين حول القراد ..

الساعاتيـة

اول ذكر ورد للساعات ببغداد في المقـامات نجده في مقامة الكازروني (القرن الـسابع الهجري) والنص وإن كان قصيراً إلا انه مهم بالنسبة لحقبته الزمنية . قال الكازروني :

« وهـــذا دار الطبـــل ولكن ايـن الســـاكن ؟ كانت آهلـــة بالمبنكمين [البنكمات آلات يقدر بها الزمان] عامرة بالـساعاتيـــة لادراك وقت التاذين فـاذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع الاوقات » .

والكازروني كما يتبين من نصـــه السابق تحدث عن الساعاتية في وقت انحلال صناعتهم فهو يقول « كانت آهلة بالمبنكمين .. » . فضلاً عـن هذا النص يؤكد ان صناعـــة الساعات المربية والاهتمام بها جاء لضبط وقت الصلاة وتحـــديد مواعيدها ..

هامش

المقامة الثانية عشرة من المقامات المسيحية

ليحيى بن سعيد [عن مخطوطة المتحف العراقي برقم ٢٢٠]

تنبيه : وردت في هذه المقامات عبارات وجمل مرتبكة وغير واضحة ، وقد اثبتناها كما هي دون تغيير او حذف .

روى يحيى بن سلام قال : حملني شـــرخ الشبيبة ومبعة اللهـو والطيبـــة الى التطوف في البيمارستانات واعيان موارد الحانات فخـرجت يوماً في زمر من اقيال بني عامر بجناب فضـل عامر وجَون جود ماهر بقرائح ارق من السلسال واخلاق اعذب من الماء الزلال فنشطنـــا امراس الاسراع ومددنا الى الفرحة باع الاطمـــاع حتى دخلنا الى احد البيمارستانات المضدية لنصقل الافكار الصمدية لانها مجمع اصحـــاب الماهات والموقظة من سنة الترهات فحين وطئنا حجـرة وخبرنا حجره (كذا) رأينا موسوساً وهو يقـول اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد يهرب من دائـــه بعد الاستنارة برأيه ويُصفّد في السلاسل بعدما كان يفوق كل باسل فما زلت به توالى الاعلال حتى اودعته اكف الاغلال .

قال الراوي : فرايت بين يديـــه رياحـين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونـــة بخرق وطبش وعليه اثواب مصبغة ومعضّـــدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النُقاب ومن حظّه له عن وجه الادب النقاب فحين لمحته اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطته الفريد فتصفحت انماطـه فاذا هو شيطان الحُماطة فعلمت ان سر جنونـه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق البرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقلك بانشـوطة لولا غريم كدّني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعـــه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقـــة لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نل مـن زمانك ادنـى
صفـــو ولو بالجنـون
ان المكاســـب شـــتى
والنـاس فيها فنـون

ذار الانـــام بحمـــق
ان الامـــام زَبـــون
بالنحل حينـا وحينـا
بالخمـرة الزرجـون
وان يفتـــك بجـــدّ
امـر فتَل بالمجـــون
ان النفـــوس لدينـــا
باذا النهى في شجـون
فربمـــا نلت مجـــداً
عن لفظـــة هي دون
كم ساء امـــرٌ قلوباً
وقبـــل شر عيـــون
وكم تـــرّ بنـــات
وكم تغـــم البنـــون
اسفي على طيب عيش
قد مزقتـــه السنون
وجونة الصفـــو تهمى
فيـــه بغيث هتـــون
ايـــام وعـــد الوطايا
على البـــرايا ديـــون
فكل مجمـــع شـــمل
قـــد بددتـــه المنون
وكل شـــيء ســـوى طارق المنـون يهـون

قال الراوي : فحـين انكشف لأصحـــابي وانجاب ما نمق من لفظه العجاب قالوا ايها البارع في الاشعار الوحيد ابنٌ لنا اي الشعراء المجيد . فقال : اما ابو نواس الفائق القياس فظهور آياته صدّع في خمرياته ولقد كان مبرزاً في الانســـاب اذا رآه كل نـــابة ينـــاب . ملكَ سلاسة اللفظ وضبط ازمة الحفظ تيّه في الاراجيز عقل المجيز اتى باغراض المفيول وله عندهم المنزلـــة وفرط القبول . واما ابو تمام فجزل الكلام بعيد المـرام يلتحق بالجاهلية قريضه ويبرز في نخلاتهم اغريضه له السبق في حسن الفراسة في انتقاد الحماســـة واذا ذكرت ابا عبادة . فلما ترد زبارة صناجة العرب ومحدث الطرب اختيارات شعره كثـــيرة ومعانيه فايقة غزيرة تميل الى كوحه الكتاب مـن غير ارتياب . واما ابو الطيب ذو السحاب الصيت فناهيك باسمه عن اختبار وسمه صاحب الامثـال متى حرك خفير فكيه ينثال لوز قصائده وبراعـة قلائده لم يفضّل من جمعنا حقير ولا فقد منهـــا نقير . فمذ فرغ من الشرح بالغ في المدح قلنا لـه عرفنا عليك بمن شق الابحار وطيّب نوم الاسحار إلاّ ما خيّرت بين اللغة والنحو لنفرق بين الغيم والصحو فقال اما النحو في الكلام فكا لملح في الطعام رُبّه يستصغر الانام ويرى بعين الاعضام كل شيء مهراق به لم يُرقم انكير صوابه واستبهم بـــه يقوّم اللسان وتعرف قيمة الانســـان فحين رأى بمضنا قد غضب كأنه قد عضب قال لكن خـيرة ما يُهذبُ المقولَ ويصليحهُ ورفض رطبه وآكل بلحه يكد الفكر عويصهُ ويمنع السلوك عيصهُ وما يُغني في غريبه العمر غيرُ المشوش الغمـــر وهل هو الا معان تفيد كلاماً وارواحُ تستحيـل احساماً وكم شاعر لم يفتر له حرفاً ولم يشربـه ممزوجاً ولا صرفاً وهل ضُحَ الا حين فَسَدت القرايح والطباع واقتاد السباع ضعافُ الضباع الا فاين انت من العرب العرباء الذين هم عند اهل هذا الجيل كالغرباء واما اللغة والمصنعة فالاصـل الثابت والعود ذو النشر الذي يفوق نشر العـــود ربّها يتصرفُ اعنّة البلاغة كيف شاء ويذلل في رسائله الانشاء يجري في حلبة الرّصف ويمر مرّ النجم في الذم والوصف قلمه يحطم الاسل ويمزج الصاب بالعسل وينشط الكسلان ويمنـــع سيل المجلان ولاها لم تعرف حقايق الاسماء ولم يفرق بين البيضاء ولا دماء غير ان غريبها تاباهُ النفوس اذا انبتَ في الطروس هل يولد الاطرابَ الشعـر الغريب ولو شدّت به غريب كم متقعر في كتابـه لم يصل الى ايسر آرابه ثم دعني من هذا الشقاق والحجاج اما ترى نفاق ديوان ابن حجاج اما هـو اسلس الدواوين شعرا وارفعها قيمة وسعراً

قال الراوي : فما في الحشاش الا من شحذ له شباه ملام وراش حين ذمّ المامسر من العربية ووحشي الالفاظ اللغوية ومضى يكسر عليه ارعاظَ النبل ويحتقر طلّ فصاحته والوَبل فكانما هـي قلبه ولاط بلبّه ما خالج الضمائر فقـال يا اولي البصائر ما قلت الاّ ما يُشير به الوقت وقـــد خشيت ان السبب منكم بحُمـــه مقت مـا جفى ما خشنَ وصَعُب والفَ ما لان وعذب إلا حين قلّت جهابذة المنثور والمنظـــوم ونقاد العلوم على العموم ثم انشد :

وتلك ليالي عيشه بُرد صفـــوها
صقيل الحواشي والزمان مراهـق
تراوح فيها الصفو والصرف غافـل
فمأديه بالافراج وهـــو موافـــق
عشية افراس الشباب ورَوْقـــه
حبابس في اســـر النهى وطلابق
يهيم بوحشي الكلام اخـو النهى
كمـــا هـام ذو وجد اذا لاح بارق
فكلّ باخبار البلاغـــة يقتـــدى
وكل لاسباب البراعـــة عاشـــق

فلهفي على دهـــر تولى بفتيـــة
تقصّر عمـــا نضدوه الحدايق

فلما ختم سمط مقاله اخذنا في تخفيف انقاله ومنحناه بالنقود وفككناه من القيود ومثلنا به على المتوائي على المرض وشرحنا له امرّه ايراما ونقضا فقال لقد جئتم شيئاً ادّاً الا ما عبر عن نفســـه وادّى فمذ سمع الايما قال رايك اسمى وقـام واورد شعراً اعلى منزلة من الشعري :

يا من غـدا اوفى انورى فطنـــة
ان اشكل الامـــر وان ابهمـــا
ومن غـــدا نائلـــه هامـــلاً
يفـوق صـــوت الجون انى همى
مـن فـرط جـود لم تدع كفـــه
في الكيس دينـــاراً ولا درهمـــا
تاللـــه مـا بي علـــة تختشـــي
وقـــد اذعت القـــول كي تفهما

ثم خبر عقله وسبر نقله وكتب له صكاً الى احد عماله بنصاب من ماله فاخذه اخذ شحاذ في العقد نفـــاذ وتركنا ونهض وقـــد بلغ النافلة والمفترض .

قال الراوي فتبعته الى المعامل لانظر اين لهذه من العامل فمذ بصر به وحل بربرية قال :

اوردها سعـدٌ وسعْـدٌ مشتمل
ورد سماح كالسحـــاب المنهمـل
لقـــد رعت خـير نياب مكتهـــل
وخير حافٍ في الورى ومنتعـــل

ثم وضع لديه اللّمعة وقد تفرغرت مقلتاه بالدموع فحين راى العامل دمعه انهائل نقده بما تضمنته الرقعة وزيادة اذنت خفضه بالرقعة فمر ينشد :

لولا الجنـــون لعانيت في البريـة فقـــرا
وسقتني الدهـــر كسراً لا يضمحل وعقـــرا
واصبحت اسطر الضّر من رقاعي تقـــرى
ولم اعـــد جفـاني تقـرى ولم اك اقـرى
طوراً تراني بفـــانا ذلاً وطـوراً صقـــرا
لكن اطـــير سريعـــا ولا اطـــير المقـــرا

المقامة الخمسون من المقامات المسيحية

وتعرف بالدارية ليحيى بن سعيد المعروف بابن ماري [عن مخطوطة المتحف العراقي رقم ٣٢٠]

حدث يحيى بن سلام قال : حين لم تتخلف حانـــة . وما بقيت آنـــة . ورفضني من كان يخشاني ، وما احلني ولا اخشاني رفضت المقام . وقصدت دار السلام وتوركت بطن الجاريـــة . وتعلقت بالطائـرة السايـرة . المنسابـة في العين انسياب الاين . فلم تزل في الحبب ، بين جري وخبب ، حتى احلتنا حمى الامام ، ونقطة الاسلام وكنت يومئذ اتعاطى الطب . واواضب الى نقلته ولا اغب . فحين وطئت عيثرها . وطمحت عينها واثرها . تقت الى شاغورها لا فرق بين صحاحها بزمر وتجاهه من الكتب امهاتها . وقـد طرزت حواشيها سمانهـا . وهـــو يقلب كتاباً كتاباً . ويشرح باباً باباً . ويقول ذهب علم المزاج . واقتنع بحسن المعاشرة والامتزاج . فلا علاج ينجح ولا خير يرجح . واقتصروا من العلم على جس العرق بغير عرفان . ومن القـــارورة على الاصباغ والالـوان وحوت نجوم اسرار جالينوس وبقـراط . ووهت عقود اراء افلاطون وسقراط . وصار من كبـــر العصبة وكثر العصبة . يوماً اليه بمفرج الغمم . ومحيي الرمم . تالله ان تلك العمائم على عقـــول البهائم . ما حـوت متشب اللابس والبرانس غير افهام الانعـــام النـــانس . لو سالت احـــدهم مسئلة . رايت ارضاً ممحلة ووجـوها معبسة . واموراً ملتبسة . ثم انشد :

ينمقـــون احاديثـــاً لمكتسب
وفي الولايـات يبـدون المعـاذيرا
ولا تقـــوم براهـــين لمعتـــذر
يقول ذا العلم عندي ظل مسطورا
وهل ينـــال علوماً جل موقعهـــا
الا فتى جـــد تلقينـــا وتكريـــرا
واتلف النفس تدريســـاً اناط بـــه
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزبرا
ما اتعبـوا خاطراً في كشف مسئلة
ولم يوطـوا لرد الخصـــم تقـريرا
بالبحث يبرون ما يبرون من سقم
وفي الخطـــاء يدمـون المقـــاديرا

امهرهم لا يدري لم بعض الامراض تعـدي وبعضها لا يعـــدي ومنها يتـوارث عن الآباء فلا يدري . ولم الفالج والاستسقاء مع عموم الفساد. لا يتناقل عن الاجداد . وما السبب في حـــرارة الهواء . يبرد عنه الماء . وعلى اي وجـه محار . يبري صب الماء البارد الكرار . وان مداواة الحار بالحار يضاد ما نقل عن الاخبار . واي الامراض يبرز بثلاث حلى . وبانيها قيس كان اولى ولم مدح الراس الكبير . وذم الصغير . وحمد سعة الصدر . واستعيد من الضيق . كما يستعاد من كثرة شرب

الرحيق . وهل دم الكبد غير دم العروق ، أم ليس بينهما فروق . وكيف دم الكبد غذاوه وهو الته . ام يغتذي به اذا اكملت في العروق استحالة وما الذي تغتذي به الاعصاب واللطيف . لبعد جنسها من جنس الدم والكثيف ، واي شيء اقدم الدم في الشريان او الروح . والحركة احدث او الجنوح . وهل معما جعل من الاخلاط يرى لهـــا في الدم اختلاط . ولم من حماه ملازمه احر من الرمضاء تبدي قارورته في حلة بيضاء . واني محل الحرارة الغريزية عند حدوث الحرارة الغريبة . وهـــل يستقران معـــاً وذاك باطل اذ لا يستقر الشيء وثانيه . او ينفر احدهما او يبيد وهذا مستحيل عنده ينقص اصل البدن ومبانيه .

قال الراوي : فحرت بمعضلاته . وتقت الى حل مشكلاته . فقلت : ايكون مثلك في هذا الاقليم. ولا يتصدى لهداية التعليم . فقـــال نوء الكرام اخلف . وعرى الزمن جرف . وساد الطغـــام . فما يفرق بين الحكمة والمغنام . احدهم يحكم على الراوند بالبرودة وعلى الافيون بالحرارة . ويتناول الاشياء على غرارة . يقتنع من الطبيب بسبره . دون سبره . وبطبيب ذكره . ولو افرط في ذكره. واسمرك بحـــار . ان عدلت جار . وان سكنت ثار . ما استقمت الآمـــال . ولا اعلت الاعمال . بتماطي ما اتعـاطى . ويـــــرع الى مضرتي ولا يتباطىء . ما عدت مريضـــا الا كتب القصص . ليفوز بالحصص فان جرت شدة عند بحران شبة الي . ونبه اعين الجناية علي . فكم سترت غيبـه وحسنت عيبه . وهو لا يعبا باشفاقي . ويـرى احراقي . دابه تصفيف لحيته ومد سبالـــه . وتفويف سرباله . وتقذيف نباله . يحلب بسمنة وخمرة . ويخلب بدا واحبل وعميرة . ويخيـــل للمنيف . القـــاح البنين . ويصبغ الخضاب لمن شاب . ويرتب معاجين البـــاه للشباب . يعتب بالحد بالحد . واسراح بالنجد . ويعتب بالعدد . ونعم بالعدد ان ناقضه نفر وصاح . وان جادلتـه لم يصبر على الكفـاح . يلـــــع ويصيء . ويظلم واضيء . لو سال لم القي يجدث عقيب اختـلاج الشفقة . خرج من عدم الجواب الى السفه . لكن اداريه واماريه . ولا اباريه . لعدم من ينتقـد . وبوار المفتقـــد . ادعى الى مريض كاني صاحب الوحي . ولم يبق في عَبَقَـةَ في النحي . يرمون انقضاء المرض قبل اوانه وزواله دوين تمام بحرانة . ولا يعلمون ان للامراض مراتب . يـــهل صعبها القاانون الراتب . ومنها ما يهلك المريض قبل التدبير ولا يفيد معه العقاقـير . ومنها ماشـوطه يمتد ، ويقوى اله ويشتد . فاذا بلغ الانتها . انقطع عقده ووهي ثم لا يميزون بين من كد فكرة واتعب . وبين من غنى فاطرب .

قال الراوي فاخذبت بعض كتبه فنسبني بحميه عنبه . وقال احدكم يقدم اقدام الضرغام ولا يفرق بين الشهد والسـهام . ويقتنع بالقراة تقليـدا . ويجد منه لنفـه توبيخا وتفنيداً . لا يدري حدوداً لتعاليم . ولا رسومها في الحد السليم . ولا الثمانية الفوائد التي هي في صدور القراة كالقلائد . بل ان حضر مادبة هتك حريمها وحلل تحريمها . واكل اكل اكل من لا ينظر في مصلحته ولا يحفظ قوانين صحته . وقدم من المطعوم ما يبتغي ان يتاخر واخر ما يجب ان يقدم ويفخر ثم انشد :

فقـت الاولى فاقوا الورى بالفهم في سـر الطبيعة فغدوت اعرف نبض من يخفي التواصل والقطيعة فبكـل شـخص لي على ما في بواطنـه طليـعة فغضـائلي عنـد الاكـابر والالى فاقـوا ذريعـة ايـام تـاتي للورى بتـراجم النعمى شريعـة ومرابـع ماهولـة بتـواتر الجـدوى مريعـة لا اخشى نـوب الزمـان ولا حوادثـه القطعـية واوامـري مسـموعـة تروي ومنزلتـي رفيعـة

قال يحيى بن سلام : فمائبث ان ورد خادم حصان. واخذ يخدعه كما تخدع الحصان فقال تاالله ماارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً . دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيما حتى ارى امراً مستقيماً فنقده الغلام بقرطاس . ولم يبد وجه مكاس فحين قـام امتزجت بديمة . ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته والتحق بزرمته شاهد مدنفا لم يبق منه الالقا بانفاس . متصعدة ونفس مترددة فقال :

هذا ما كنا فيه ادعى الى من الا يمكن تلافيه . ثم حل جلابا بماء الورد وسـقاه . فانتعش انتعاشة ظن انه شفاه . فافرغت عليه اكياس النضار انواعاً . وصار بينهم ملكاً مطاعاً . فمد ايس انخداعهم نهض. وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو لمن عانيت انصلاحاً . او ترى لمزاجه صلاحاً . فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً . اما صاحبت من عاج وارعى. فاستتلى استيلاء الخفوت ساعة الحصور . فاسرع فقدان ان يبور وينادي بالويل والثبور .

فقـال الراوي : فتفرقنـا شغر بغر . وقد بلغت الارواح النغر .